

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرّمان لسنان أنطون

سيد اياد موسوي*

علي نظري**

الملخص

تعدّ إشكالية الأنا والآخر من أهمّ القضايا التي تناولتها الرواية العربية عامّة والعراقية خاصّة، فكانت هذه الثنائية واضحة وملموسة في نصوص الكثير من الروائيين، وهناك من بيّن للمتلقي بشاعة الآخر/الأمريكي وهمجيته ودناءته؛ وما عانته الأنا/العربية من قهر وقمع واضطهاد؛ لذا تُعتبر الأنا والآخر ركنين أساسيين في بحث الصورولوجيا. إذن من خلال المنهج الوصفي - التحليلي سنبحث الثنائية القائمة بين الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرّمان. تحتوي روايات سنان أنطون على جدلية الأنا والآخر ويستطيع الباحث في هذا المجال الكشف عن الجدلية والعلاقة القائمة بينهما، لأنّ الروائي يصف الآخر بأنواعه المختلفة في رواياته كما تتجلى ذات الروائي من خلال تصويره لهذا الآخر. لقد درس هذا البحث صور الأنا والآخر بجميع أنواعهما عن طريق استقراء رواية وحدها شجرة الرّمان معتمداً على مبادئ الصورولوجيا ودراسة صور الأنا والآخر فيها. يهدف هذا البحث إلى إظهار جدلية الأنا والآخر في الرواية. وتؤكد النتائج أنّ الأنا للروائي تبرز بصورة الأنا الشيعية والأنا العراقية وتتجلى تجلياً ملموساً ومقصوداً في

* طالب مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة لرستان، خرم آباد، mousavi.a@fh.lu.ac.ir

** أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة لرستان، خرم آباد (الكاتب المسؤول)، nazari.a@lu.ac.ir

تاريخ الوصول: ١٣٩٩/٠٥/١٢، تاريخ القبول: ١٣٩٩/٠٨/١٠

الرواية، كما يصوّر سنان أنطون الآخر بصورة الآخر الإيراني والآخر البعثي والآخر الأمريكي والآخر الإرهابي.

الكلمات الرئيسية: الصورولوجيا، الأنا، الآخر، وحدها شجرة الرّمان، سنان أنطون.

١. المقدمة

كان الأدب المقارن الذي نشأ في فرنسا يبحث عن التأثير والتأثر الثقافي بين الشعوب؛ من ثمّ ظهر أدب الرحالة الذين دخلوا بلدان عدّة بداعي السياحة أو التجارة وقد وصفوا البلدان وأناسها بأوصاف مقصودة حيث تطرّقوا إلى وصف أخلاق تلك الشعوب وبيّنوا حضاراتهم وثقافتهم؛ فمن خلال هذه النصوص استطاع الغزاة الزحف إلى مثل هذه البلدان بنّية استعمارها وذريعة إحلال التطوّر والازدهار فيها. في بادئ الأمر كان يبحث الغزاة عن دمج ثقافات الشعوب المستعمرة مع ثقافتهم وطمس هويتهم؛ ومن هنا ظهرت نوايا المحتلين للوطنيين وندد الكثير منهم بهذا الاحتلال وطلبوا الوقوف في وجه المحتلين؛ وهذا الأمر ممّا أدّى إلى ظهور وكشف جبهتي الأنا والآخر. فقام علماء الأدب المقارن بدراسة هذه الصور ودمجها تحت غطاء الأدب المقارن بصفتها دراسات تختصّ بالصورة.

ومن هنا أصبح الأدب المقارن يهتمّ بالصورة التي تصفها الأنا والأخرى التي يحاول الآخر بثّها؛ وامتدّت هذه الصراعات حتّى هذا القرن حيث أصبحت الصورة التي تتكوّن عن الآخر في الأذهان هي التي أماطت اللثام عن مفهوم الآخر شيئاً فشيئاً وأثرت على علاقات الشعوب و«من أهمّ العوامل المؤثرة في علاقات الشعوب هي الصورة التي تتكوّن عن الآخر في أذهانهم، حيث يقومون بفهم الآخر وفقاً لهذه الصورة» (رضا پور محيسنى، وآخرون، ٢٠٢٠م: ٩٨).

حاولنا من خلال هذا البحث أن نظهر للقارئ أنواع الأنا والآخر والجدليّة الحاصلة بينهما من خلال دراسة رواية وحدها شجرة الرّمان ونبحث عن الصّور العامّة للأنا، بأنواعها المختلفة، كما نبيّن كيفيّة تفاعل الأنا مع الآخر وتوافقهما أو اختلافهما. إنّ معرفة الآخرين

تؤدّي إلى التفاهم والارتباط بين الثقافات المتنوعة وظهور القيم الخالدة كالمحبّة والأخوّة والوئام، فربّما معرفة الآخر وظهور هذه القيم الخالدة تكون سبباً للحيلولة دون الحروب والعنصريّة وتخلق عالماً أكثر إنسانيّة وتُسهّم في بناء روح جديدة، فالرّغبة في المساهمة ولو بالنّزر اليسير في تحقيق هذه المهمّة هي التي حفزتنا على الاهتمام بهذا الموضوع. إذن الرّواية العراقيّة الحديثة تعكس في طيّها قيمة فنيّة وثروة فكريّة جليّة، وقد عبّر الروائي العراقي عن تجربة نفسيّة وشعوريّة صادقة، فهو وليد المعاناة ونتاج الألم الدّفين الذي ترعرع في قلوب أبناء وطنه جرّاء القمع والظلم الذي ألحقه بهم حزب البعث والوجود الأمريكي الشنيع الذي راح ضحيّته الكثير من البراعم والأبرياء. لعلّ الرّواية هي الأكثر قدرة من بين الفنون على تجسيد إشكاليّة الأنا والآخر، فمن خلال الرّواية يعبر الأنا عمّا يجول في أعماق وجوده من دعر وألم. فمن الرّوائيين العراقيّين الذين أبدعوا في التعبير عن مأساة الأنا العراقيّة ومعاناتها هو سنان أنطون، إذ كرّس رواياته على قضيّة الأنا والآخر ودعا للوحدة والإخاء والمودّة. لهذا حاولنا أن نكشف صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرّمان لنجعل حقيقة الآخر الأجنبيّ المحتلّ ماثلة وواضحة أمام المتلقّي.

١.١ أسئلة البحث

والأسئلة التي تُطرح في هذا البحث هي:

- ما هي ملامح صور الأنا في رواية وحدها شجرة الرّمان وما هي أنواعها؟
- كيف يتجلّى الآخر بأنواعه المختلفة في الرّواية؟
- وما هي فوائد مثل هذه الدراسات للقارئ الإيراني؟

٢.١ فرضيات البحث

- قد تكاثرت ملامح الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرّمان حيث نرى الأنا العراقيّة والأنا الشيعية والبحث عن الذات في همهمة الحروب وتكاثر الجماعات المسلحة من الغزو الأمريكي حتّى حضور الآخر الإرهابي بصور شتى.

- وقد حضر الآخر في هذه الرواية من أبناء القوم ومن حزب البعث حيث شتت الشعب العراقي وتدهورت الأوضاع الأمنية والاقتصادية، ثم الآخر الأمريكي والآخر الإرهابي.

- ومن خلال قراءة الرواية والتمعن في هذا المقال يستطيع القارئ الإيراني أن يعرف تمايلات الشعب العراقي ومعاناته التي تشبه معاناة الشعب الإيراني أثناء الحرب المفروضة. إذن الآخر البعثي هو الآخر عند الشعب العراقي و الشعب الإيراني.

٣.١ خلفية البحث

من خلال البحث في مجال الصورولوجيا تبين لنا أنّ هناك دراساتٍ أكاديميّة باللغتين الفارسيّة والعربيّة بشكل كتاب، أو أطروحة جامعيّة، أو مقالٍ محكم، وبما أنّ مدار هذه الدراسة يدور حول الرواية لذا نرّمز إلى بعض الدراسات الرّوائيّة التي سلّطت الضوء في هذا المجال ونشير إلى أهمّها فيما يلي:

كتبت ماجدة حمّود (٢٠١٠م)، كتاباً بعنوان «إشكاليّة الأنا والآخر: نماذج روائية عربيّة»؛ وقد اختارت المؤلّفة في هذا الكتاب ثمانيّ رواياتٍ من عدّة بلدان عربيّة وناقشت رؤية الأنا العربيّة ولغتها وموضعها تجاه الآخر وكيفيّة إيجاد علاقة التفاهم والتعامل مع الآخر في دراسة متأنّيّة للروايات. من ميزات الكتاب أنّه يحتوي على مقدّمة نظريّة حول إشكاليّة الأنا والآخر، وتمتاز دراسة الروايات بتجاوز المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية، والاهتمام بجماليّات اللّغة والمكوّنات السرديّة كالعنوان، والفضاء، والاسم، والضمير، والحوار.

كتبت فاطمة كاظم زاده (٢٠١٥م)، مقالاً بعنوان «الأنا والآخر في رواية ثريا في غيبوبة لإسماعيل فصيح» وقد درست في هذا المقال صورة الآخر الفرنسي والآخر الأمريكي والآخر الإنكليزي والآخر الألماني والآخر التركي والآخر العربي، ثمّ بحثت صورة الذات في نهاية المقال.

هناك دراسة بقلم مسعود شكري وآخرين (٢٠١٧م)، بعنوان «صورة الآخر الإسرائيلي في رواية المتشائل لإميل حبيبي»، وقد قام الكاتب بدراسة الصورولوجيا حول الصورة الجسدية

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون ١٢٥

للآخر الإسرائيلي، والآخر في مرآة المكان، والآخر الإسرائيلي والديمقراطية، والآخر الإسرائيلي والنظرة الدوتية إلى الأنا الفلسطينية، بصورة ممتازة.

ومقال بعنوان «صورة الآخر الأجنبي والعربي في شعر فاضل العزاوي» (٢٠٢٠)، بقلم توفيق رضاپور محيبي ورسول بلاوي وعود الغزي، في مجلة آفاق الحضارة الإسلامية. قد درسوا صورة الآخر في نصوص الشاعر العراقي فاضل العزاوي للتعريف على خفايا ومستورات ذلك الآخر، وتوصلوا إلى نتائج كالتالي: الصورة التي رسمها الشاعر عن الآخر نبعت بالدرجة الأولى من حاجاته وثانياً حاجات مجتمعه العراقي والعربي وإن موقف الشاعر من الآخر كان مرتبطاً بمواقف هذا الآخر من القضايا الإنسانية.

كُتبت دراسات ورسائل عديدة حول الأنا والآخر في الأدب الحديث، فلم يتطرق أحد إلى روايات سنان أنطون من هذا الجانب، ودراستنا هذه جاءت لتسلط الضوء على جدلية الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان وبما أن روايات سنان أنطون تمثل تاريخ العراق الحديث فهي تُظهر أهمية هذا البحث. والجديد في هذا البحث هو تسليط الضوء على أن الآخر المتخاصم مع الشعب الإيراني هو نفسه المتخاصم مع الشعب العراقي.

٤.١ السيرة الذاتية للكاتب

سنان أنطون كاتب ومخرج وشاعر عراقي وُلد في بغداد عام ١٩٦٧. بعد حصوله على شهادة الليسانس في الأدب الإنجليزي هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال الدراسة وهروباً من الحرب الخليجية عام ١٩٩١، وقد حصل على شهادة الماجستير في عام ١٩٩٥ وشهادة الدكتوراه في عام ٢٠٠٦ من جامعة جورجنتاون في الأدب العربي كما أصبح مدرساً في تلك الجامعة. في عام ٢٠٠٣ نشر سنان روايته «إعجام» التي تُرجمت إلى شتى اللغات كالإنجليزية والبرتغالية والإيطالية والنرويجية، وفي عام ٢٠١٠ نشر رواية «وحدها شجرة الرمان» والتي كانت من أهم أعماله الأدبية، ثم رواية يامرهم عام ٢٠١٢ وفي الأخير رواية الفهرس عام ٢٠١٦. (أنطون، ٢٠١٣: م: ٧).

٢. الإطار النظري

١.٢ الصورولوجيا

انعكست صورة البلدان التي زارها الثَّجَّار والسيَّاح والغزاة في قصصهم أثناء وصفها لأقربهم وبمرور تغيَّرت واندجحت هذه الأوصاف في الأدب كما يقول شكري: «بعدما توسَّعت العلاقات الإنسانية وتعرَّف أبناء البلدان المختلفة على البعض من طرق سلمية كالرحلات السياحية والتجارية أو غير سلمية مثل الحروب، تشكَّلت رؤى عند شعوب بلد ما تجاه البلدان الأخرى وانعكست هذه الرؤى في أدب الشعوب» (شكري وآخرون، ٢٠١٧م: ٨٩). فسُمِّيت دراسة هذه العلاقات في الآداب والثقافة، بالصورولوجيا و«حينما أخذ الأدب المقارن يدرس علاقات الآداب بعضها مع بعض، ظهر فيه فرع من الدراسات باسم الصورولوجيا الذي يتطَّرق إلى صورة الآخر وعناصرها في الأدب والفرق. فالصورولوجيا أسلوب لدراسة صورة البلدان الأخرى والشخصيات الأخرى في أدب أديبٍ ما أو عصرٍ ما أو مكتبٍ ما، ويهتمَّ بصورة الآخر في ثقافة الأنا كما يهتمَّ بصورة الأنا في ثقافة الآخر» (المصدر نفسه: ٨٩).

فعلم الصورة في الأدب، علم حديث دخل في مجال النقد الأدبي وكلمة صورولوجيا «لها شمولية وعمومية، مع أن لهذا النوع من الاتجاه النقدي تعاريف تخصَّ به، وتشمل قسماً خاصاً من دراسات الصورة في معناها العام، فهذه الكلمة جديدة كل الجدة بحيث أنها لم تُسجَّل في كثير من المعاجم اللغوية» (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ٣).

صنَّفت الصورولوجيا من فروع الأدب المقارن، ومن هذا المنطلق تقول الباحثة ماجدة حمّود: «تحتاج هي مثله إلى أدوات الناقد في معرفة العلوم الإنسانية (التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس...)، والمناهج النقدية الحديثة، كما تحتاج إلى مؤهلات ذاتية كالذوق، والحساسية وغير ذلك من أدوات تساعد على تلمس الجمال» (حمّود، ٢٠١٠م: ٩).

إذن علم الصورة في الأدب مادة جديدة لفهم العلاقات القائمة بين الشعوب وتساعد الباحث على فهم رؤى وأفكار الأديب حول الأنا والآخر.

٢.٢ الأنا والآخر لغةً واصطلاحاً

احتوت الأنا والآخر في اللغة على مسائل فلسفية ونفسية واجتماعية، سنبحثها في طيات رواية وحدها شجرة الرمان بعدما نأتي بتعريفهما.

١.٢.٢ تعريف الأنا

الأنا في علم اللغة، كما وردت في لسان العرب، «اسم مكنى وهو للمتكلم وحده، وإنما بني على الفتح فرقا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل أما الألف الأخيرة إنما هي لبيان الحركة في الوقف» (ابن منظور، ١٩٨٨م: ١/١٢٢). وقال لويس معلوف في كتابه المستنى بالمنجد في اللغة والأعلام بأنّ أنا «ضمير رفع للمتكلم، والأناثة قولك أنا» (معلوف، ١٩٩١م: ١٩).

ويرى الجابري أنّ الأنا أو الذات تأخذ معناها من حضور الآخر؛ إذن «الذات لا معنى لها سوى أنّها المقابل لـ"الآخر" تقابل تعارض وتضاد أو أنّها المطابق لنفسه المعبر عنه Identite وهو ما نترجمه اليوم بلفظ الهوية أو العينة أي كون الشيء هو هو، عين نفسه» (الجابري، ٢٠٠٩م: ٢١).

و في المعجم الفلسفي ينظر مصطفى حسيبة للأنا من منظار فلسفي فيقول: «الأنا مفهوم فلسفي يدل على ذات الأفعال المتعمدة أي الأفعال التي تأخذها الشخصية بالحسبان وتتحمل مسؤوليتها» (حسيبة، ٢٠٠٩م: ١٠٣). «إذن المقصود بالأنا هو الجانب الواعي لذات الشخصية الإنسانية، ومشاعرها وأفكارها تجاه كلّ ما هو خارج عنها ويحيط بها سواء أكان مادياً أم معنوياً، أي هي تمثّل حلقة الوصل بين ذات الفرد والعالم الخارجي، ولا يمكن للأنا أن تظهر إلا من خلال الآخر، وذلك لأنّ العلاقة بينهما متلازمة ومستمرة والأنا في الأصل جزء من الآخر ولكنّ ما يبرز الأنا ويحدّد هويتها هو أفكارها ونظرتها وفلسفتها ورأيها المتميز» (عباسعلي نجاد وآخرون، ٢٠١٩م: ٨).

والأنا في عصرنا هذا لقيت اهتماماً موسّعاً في نطاق الفلسفة بصفة عامة «ففي نظرية المعرفة ترجم مصطلح الذات بالماهية وهي الخصائص الذاتية لموضوع معيّن وتقابل الوجود،

ومنه التعبير الشائع: الوجود والماهية، كما أسهمت الفلسفة الوجودية بنصيبٍ موفور في مناقشة هذا المصطلح انطلاقاً من قناعتها بأنّ السؤال عن الأنا هو سؤال عن الوجود، ويتربّب عن ذلك القول بأنّ الوجود هو أولاً وجودي أنا، أنا الذات المتفردة» (بوحملايس، ٢٠٠٩م: ٧).

إذن معرفة الأنا من وجهة العلوم الإنسانية أمر في غاية الأهمية، وقد تتغيّر وجهة الأنا بتغيير الظروف والتعبيرات والانتماءات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

٣.٢ تعريف الآخر

الإنسان اجتماعي بطبعه فهو يتفاعل ويتواصل ويتعامل مع الآخر ليستمرّ؛ فتعريف الآخر من وجهة ابن منظور هو «اسم على أفعال والأنثى أخرى، إلا أنّ فيه معنى الصفة لأنّ أفعال من كذا لا يكون إلا في الصفة، وتصغير آخر أويخر، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ (المائدة: ١٠٧) فسره الفراء فقال: معناه أحران من غير دينكم من النصارى واليهود، والجمع بالواو والنون، وأخريات وأخر، وحكى بعضهم: أبعده الله الآخر، ويقال لا مرحبا بالآخر أي بالأبعد» (ابن منظور، ١٩٨٨م: ٢٩).

وفي المعنى القريب البسيط هو «كلُّ من يقارب الأنا وأنت ونحن؛ أمّا في المعنى الاصطلاحي الأبعد فالأمر مختلف» (أفاية، ١٩٩١م: ١١). وما ذلك إلّا «لأنّ في الوجود الإنساني آخر دينياً ومذهبياً وقومياً وعرقياً وجغرافياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً؛ فتتعدّد دوائر الآخر ومستوياتها بتعدّد دوائر الأنا ومستوياتها. ويختلف تحديد الآخر تبعاً لموقع الناظر إليه؛ فالآخر بالنسبة للذات الدينية هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما الآخر بالنسبة إلى الذات القومية أو العرقية فهو الذي ينتمي إلى قومية أو عرقية أخرى» (الهروط، ٢٠٠٨م: ١٣).

وأما الآخر من منظار علم النفس فهو «مجموعة من السلوكات الاجتماعية والنفسيّة والفكرية التي ينسبها فرد/ ذات، أو جماعة ما إلى الآخرين ممّا يُحيل إلى أنّ الآخر في مجال العالم للهوية» (الذويخ، ٢٠٠٩م: ١٠).

وهناك من يرى الآخر بمعنى الغير ويعبر عنه أيضاً بعدة ألفاظ كـ«المختلف أو المغاير أو المتميز ويقول البعض إنّ الضمائر الأخرى مثل أنت وهي وهو وغيرها من الضمائر هي إشارة إلى الآخر أو "لا-أنا" في مقابل الأنا» (السليمان، ٢٠٠٩م: ٩١).

٣. الأنا في رواية وحدها شجرة الرمان

الأنا في هذه الرواية تمثلت بصورة الأنا الشيعية والأنا العراقية، ومن خلال هذه الصور حاول بطل الرواية أن يبحث عن ذاته التي انغمرت في زحام الشخصيات المؤثرة.

١.٣ الذات وتجليات البحث

من صفات الإنسان الطبيعي هو عدم استطاعته على العيش وحيداً وبعيداً عن الناس، لذا كانت العائلة هي الرابط الأساس وحلقة الوصل والخلية الأساسية التي تكوّن المجتمع وتربط الناس بعضها ببعض، فالإنسان من خلال تكوينه للعائلة يرتبط مع الآخرين ارتباطاً مبنياً على المشاركة والتعاون. بناءً على هذا فالعائلة في روايات سنان أنطون تلعب دوراً هاماً وتأخذ مكانة مرموقة حيث أنّ بطل الرواية يخرج من بطن العائلة ليصف لنا الأنا العائلي والآخر الأجنبي ولو كان هذا ممّا يسبّب صدمات بين أفراد العائلة، لكن رغم هذا ستبقى العائلة في نصوص سنان أنطون هي الأنا المعرفية والذاتية. إذن برغم الظروف التي ألمّت بجواد بطل الرواية وعاشها مع العائلة والصدمات التي تكاثرت فيما بينه وبين والده بعد رفضه لمهنة والده؛ ستبقى العائلة الموضوع الأساسي والتي تلعب الدور البارز في كيان جواد كما يكون هو الحامي لها ويلمّ شملها. كان بطل الرواية يُعاني الوحدة والعزلة ممّا جعله يظنّ بأنّ العائلة والمجتمع والأصدقاء عاجزون عن دركه وعمّا يجول في خاطره كما أنّه كان يرى شيئاً من التبويض بسبب اهتمام والده تجاه أخيه أمير:

«المرّة الوحيدة التي بكى فيها أبي كانت عندما سمع بخبر موت أخي، أمير، الذي كان يكبرني بخمس سنوات، والذي تحوّل من يومها من الدكتور إلى الشهيد. احتلّت صورته

(بالأبيض والأسود) المؤطرة قلب الجدار في غرفة المعيشة فوق التلفزيون ومساحة أكبر من قلب أبي الذي كان أموري أصلاً يحتكر الكثير منه» (أنطون، ٢٠١٣م: ١٦)

فجواد كان يسعى للاقتراب من والده كي يحتل مكانة أخيه أمير التي كان يرى فيها شيئاً من التبعية، لكنّه لم يستطع، لأنّ والده طالما كان يفتخر بأخيه أمير ويراها الابن المثاليّ له، لذا نرى جميع محاولات جواد لإرضاء العائلة والاقتراب من والده باءت بالفشل:

«فأمير كان ابناً مثالياً طالما افتخر به أبي» (المصدر نفسه: ١٦).

اهتمّ أمير بالعائلة اهتماماً بالغاً، درس الطبّ وصار طبيباً وكان يساعد أباه في شتّى أموره، فهو الابن الأكبر للعائلة والمحّبّ لديها، لذا أثارت هذه المسألة الحسد في وجود جواد تجاه أخيه، كما أنّه عانى الكثير من والده بعد موت أمير في الحرب التي شنتها حزب البعث على الشعب الإيراني:

«لم أكن أمضي الكثير من الوقت في البيت أساساً قبل موت أموري، لكن اصطداماتي بأبي ازدادت بعد ذلك وكنّ أحاول أن أنفاده لأنفادها. قال لي أكثر من مرة وأنا أعود ليلاً إنّي أتعامل مع البيت كأنّه فندق» (أنطون، ٢٠١٣م: ٢٢).

أصبحت الأوضاع لدى جواد أصعب للغاية بعد موت أخيه أمير، فهو من كان يُنهي الخلافات والصدامات الحاصلة بين جواد وأبيه. كان جواد من هواة الفنّ ولايهوى مهنة والده في غسل الأموات، فمزاوته للرّسم سبّبت صراعاً بينه وبين العائلة التي كان همّه الوحيد، طيلة الرواية، هو إرضاءها.

٢.٣ تمظهرات الأنا الشيعية

لم يكن الخطاب الإيديولوجي العربي لدى سنان أنطون قومياً فحسب بل كان دينياً أيضاً، فالهوية الدينية الشيعية كانت جزءاً أساسياً من التركيبة الاجتماعية في الرواية. عاش جواد بطل الرواية في عصرٍ هيمنَ عليه الصّراع الطائفي بشكل أساسي، فالأنا في وجهها الشيعي من أكثر الصّور وضوحاً وأوسعها مجالاً في رواية وحدها شجرة الرّمان، فقد كانت عائلة كاظم شيعية إثني عشرية كما أنّ تجارب بطل الرواية كانت تدور حول أحداث الغسل والدفن، والأنا

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسان أنطون ١٣١

الشيعة تقوم أساساً على سمة خاصة وهي السعي لإثبات الهوية وإبقائها ضمن تاريخ العراق الحديث. وحتى اختيار الأسماء كان موقفاً بالنسبة لفضاء النصّ.

حاول سنان في الرواية أن يخلق جبهتين متخاصمتين من الناحية المذهبية، فجعل الحكمة الأساسية لهذا المضمون عند باب المغيسل حين سأل جواد والده قائلاً:

«لفت انتباهي عدم وجود قطعة تشير إلى المكان أو تدل عليه وعندما سألتُ أبي عن ذلك قال لي ألا حاجة لقطعة لأنه ليس دكاناً أو محلاً تجارياً. وأضاف وهو يضع المفتاح في القفل ويديره إنَّ الكل يعرف أين المغيسل، فهو الوحيد للشيعة في بغداد والأغلبية الساحقة موجودة في النجف. قالها بفخرٍ وأضاف إن الكاظمية كلّها تعرفه» (المصدر نفسه: ٢٤)

حاول الروائي أن يتطرق في رواياته إلى مسألة الأقليات الدينية في العراق، سيّما قضية المسيحيين في رواية يا مريم وقضية الشيعة في رواية وحدها شجرة الرمان، وكان دقيقاً في انتقاء الطقوس المذهبية واختيار أسماء الشخوص والفضاء الروائي. لذا حاول التدقيق في بيان التفاصيل كي يعبر عن الطقوس المذهبية بصورة حسّاسة ودقيقة حتّى في مسألة التكفين:

«ذهب حمودي إلى أحد الدواليب وجاء منه بواحدة من الأكفان التي يكتب عليها دعاء الجوشن الصغير والكبير ووضعه على صدر أبي تحت حنكه. ثم خرج إلى الحديقة الخلفية وسمعتُ صوت أغصان تُكسر. عاد بغصن من شجرة الرمان كسره إلى قطعتين ووضعهما بجانب الذراعين داخل التابوت. تذكرتُ كيف كنت قد سألتُ أبي عن سبب وضع جريدة النخل أو الرمان مع الميت فقال إنّها ترفع عن الميت عذاب القبر» (المصدر نفسه: ٩٧).

دعاء جوشن الكبير والصغير من الأدعية المعروفة لدى المذهب الشيعي. فيرى بطل الرواية أنّ الأنا الشيعية تنفرد في طقوسها الدينية ويرجع الأمر هذا لأسباب متصلة بالماضي لم يتطرق إليها، كما أنّه جعل في هذا النصّ، جبهة أهل السنة في بغداد وجبهة الشيعة في النجف الأشرف، لهذا كانت وصية والده أن يدفن إلى جانب ابنه أموري في النجف الأشرف:

«كان قد حجّ إلى مكة قبل ثلاث سنوات كي يضمن أنه سيكون مع أموري في اللجنة وكان يريد أن يدفن إلى جانبه في النجف كما كان يرّدد» (أنطون، ٢٠١٣: ٩٥).

من خلال سرد بطل الرواية نرى بأنّ الموت يفرّق بين المقابر، فكازم والد جواد بطل الرواية وأموري الشهيد، الذي يمثّل الأنا الشيعية المتشدّدة على الهوية، يبحث عن وحدانية

وانفراد في الغسل والقبر. وعندما رجع جواد إلى «المغيسل» بعد غياب حمودي، يصف لنا المكان قائلاً:

«ذهبتُ إلى الغرفة المحاذية. كان كل شيء مثلما هو. الكراسي والطاولة وصورة الإمام علي فوق الشباك. كانت هناك هالة صفراء مشعة حول رأسه تحيط بالكوفيّة الخضراء. ارتفع حاجباه من الوسط قليلاً واستقرت عيناه البنيتان الكحلّيتان في محجرين كبيرين. شاربه ولحيته سرحة متموجة وقميصه أبيض. كانت جملة لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذوالفقار مكتوبة أسفل الصورة». (المصدر نفسه: ١٧٦).

أخذ سنان يصف للمتلقي الصّورة المنسوبة للإمام علي (ع) بجميع تفاصيلها وبدقة تامّة للملامح الصّورة، وبهذا حاول أن يخلق فضاء يتلائم والمذهب الشيعي الذي يعتنقه جواد وعائلته.

«سمعتُ صوت الكنيسة تحتم بأرض المغيسل وبدأت دقائق الغبار تدخل أنفي. جلسْتُ على الكرسي ونظرت إلى صورة الإمام علي ثانية. جاء صوت مظفر النّوّاب مدوّياً من ذاكرتي وهو يخاطبه: «لو عدت الآن لحاربك الداعون إليك وسموك شيعياً.» (المصدر نفسه: ١٧٦).

حاول الروائي من خلال هذا النص أن يبيّن للقارئ أنّ الأحزاب لا تفسّر بصورة صحيحة والدول الإسلامية تحتاج إلى شخصية قاطعة كشخصية الإمام علي عليه السلام. كانت أمّ جواد دائماً ما تردّد مفردة «هم» في الكثير من كلامها، وكان جواد بطل الرواية يتأدّى من سماع هذه المفردة، فهو يراها من زرع الخلاف والبغضاء بين أبناء الوطن وشتت شمله وأنخن الجرح العراقي وساعد على نزيفه أكثر فأكثر في ظلّ الأوضاع الراهنة المملوءة بالفتن:

«في أحد صباحات شباط ٢٠٠٦ كنتُ أرتمي ملابسي واتّحياً للذهاب إلى العمل حين سمعتُ أمّي تصرخ وتنوح في الطابق الأرضي. نزلتُ الدرج راكضاً وكنتُ حافياً لا ارتدي إلا البنطلون. رأيتها جالسة تشاهد التلفزيون تلطم وتردد أويلي أويلي، أمسكت بيديها ورجوتها أن تتوقف عن اللطم هاي شبيج يمّه؟ شصار؟ كان هناك مشهد على الشاشة لقبّة جامع مهدّمة. قالت من بين دموعها ضربوا العسكري هالمخافون من الله» (أنطون، ٢٠١٣م: ١٨٦).

كان الألم يكتنف وجود جواد عند سماع هذه المفردات وكان دائماً ما يسعى من خلال الحوار أن يبيّن لأّمه ويقنعها بأنّ أحداثاً سياسية ومطامع قدرة وراء هذه الأمور التي خلقت

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون ١٣٣

أساساً لزرع التفاهة والتفرقة على أرض الوطن، لكنّها تُصرّ على اختيار وتكرار مفردة "هُم" والتي تعني بما أهل السنة، فجميع محاولات جواد لإقناع والدته بآء بالفشل وكانت دون جدوى، حتى عندما يروي لها قصة شخص سَيّ حمل جنازة شيعي كانت مرمية في الشارع وجاء بها إلى المغيسل، ليغيّر آراءها وأحكامها المسبقة عن الـ«هُم»:

«بلّغت عن الحادث وماكو كل تفسير ليش الأمريكان ضربو السيارة. كالأولي أروح أقدم طلب تعويض وقدمت بس كلة حچي. ماكو نتيجة.. إتصلت بالشرطة كلتلهم أكو بشر جتته بالشارع لازم تجيروه، لاتروح الجلاب تاكله. كالأولي ماعدنه إمكانيات نروح نجيه...رحت وية أخويه هذا ال دينتظري وهأى جينا هنا... أخذت نفساً عميقاً وقلت له: بارك الله بيبك وكثر الله من أمثالك. وودعته. في المساء أخبرت أمي وأم غيداء بقصته لعلها تغيّر آراءها وأحكامها المسبقة عن الـ«هُم» لكن دون جدوى» (المصدر نفسه: ٢٠٦).

فالأنا الشيعية في هذه الرواية تنظر إلى الآخر السني من منظار سلبى وتراه بمثابة العدو لها على أرض الوطن، وكلاهما يسعى لإرساء هويته على أرض العراق، فلا يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، بل تنعكس في الأنا الشيعية معتقدات المذهب بطريقة تسمح لها بالتجلى في أكثر من أسلوب.

٣.٣ تجليات الأنا العراقية

واجهت العراق أبشع الحوادث وأشدها في زمن سيطرة حزب البعث عليها، وذلك نتيجة لسياسة رؤساءها الهوجاء. كان سنان أنطون من الروائيين الذين تعمّدوا في انتقاء الأنا العراقية في نصوصهم وصاغ مشاهد الألم والعذاب الذي ألمّ بهذه الأنا بصورة دقيقة وجسدها أحسن تجسيد في رواياته، ليُري العالم معاناة الشعب العراقي ورفضه التأم لأية حروب، فهو شعب ذاق أنواع الكبت والحرمان والاضطهاد على أيدي سلطات حزب البعث. لذا حاول أن يعطي الأنا العراقية صبغة تاريخية حيث يقول:

«سحرتني كلماته حين قال إن أجدادنا كانوا ينقشون على جدران الكهوف رموزاً وصوراً عن عالمهم وحياتهم بلوها ومرها... إن أجدادنا في وادي الرافدين هم أول من طرح كل

هذا الأسئلة في أساطيرهم وفي ملحمة گلکامش، وإن العراق كان أول وأكبر ورشة فنية في العالم. فبالإضافة إلى اختراع الكتابة وبناء أولي المدن والمعابد، فإن أول الأعمال الفنية والمنحوتات والتمائيل ظهرت في العراق القديم في عهد السومريين وهي الآن تملأ متاحف العالم وقد يكون الكثير منها ما يزال مدفوناً تحت الأرض» (المصدر نفسه: ٤٦).

فسنان أنطون من خلال شخصيته أستاذ رائد حاول استرجاع المتلقي إلى الماضي وشرح مواقف العراق وشعبه لإحلال المحبة والسلام. الأنا العراقية في روايات سنان أنطون، «أنا» رزحت تحت أنواع الظلم وتحملت شتى فنون العذاب وهي تنزو إلى حياة جميلة في المستقبل.

٤. الآخر في رواية وحدها شجرة الرمان

تعددت مظاهر الآخر في الرواية العراقية في القرن الأخير، فالآخر ليس بالضرورة البعيد جغرافياً أو صاحب العداة التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها، أو يحارب بعضها البعض الآخر، فالأنا العربية تشظت وانقسمت أنواعاً متصارعة فيما بينها، لهذا نرى الآخر الأجنبي والآخر الداخلي يلعبان دوراً بارزاً في الرواية العربية الحديثة وتحديداً في العراق. جاء الآخر في رواية وحدها شجرة الرمان على أساس مفهوم جمعي ومرتبطة بالجمع حيث نعلم بأن «مفهوم الآخر ليس مفهوماً فردياً فقط، وإنه مفهوم جمعي أيضاً، فكما أنّ الفرد يشكل تصورات عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته، فإنّ المجتمع كذلك يكون له تصوّراً عن الآخر بناءً على تصوّره لذاته، أي أنّ هناك تلازماً أيضاً بين صورة الذات وصورة الآخر على المستوى الجمعي كما هو على المستوى الفردي» (الخبّاز، ٢٠٠٩م: ٢٣).

يمكن تقسيم الآخر في الرواية تبعاً للجنس، والدين، والإيديولوجيا، والجغرافيا، إذن الآخر: الآخر النوعي: الذي يقوم على أساس النوع المتباين رجل/ امرأة، ذكر/ أنثى. الآخر الديني: وتكون التفرقة على أساس الدين، مسلم/ مسيحي، سني/ شيعي. الآخر السلطوي: ويراد به الانقسام بين الحاكم والمحكوم. الآخر العنصري: إذ تقوم التفرقة هنا على أساس اللون، الأبيض/ والأسود. (بسيوني، ٢٠٠١م: ٣). لذا سنقوم بالكشف عن الآخر الإيراني، والآخر الأمريكي، والآخر البعثي، والآخر الإرهابي في نصّ الرواية.

١.٤ الآخر الإيراني

تمتدّ الرواية تاريخياً من حرب حزب البعث على الشعب الإيراني وغزو الكويت حتّى احتلال الأميركيان للعراق عام ٢٠٠٣، فسنان أنطون يروي كلّ الأحداث التي تختصّ بهذه الحقبة الزمنية في العراق. كان حضور الآخر الإيراني في الرواية حضوراً ملموساً، فهو الآخر المعتدى عليه من قبل حزب البعث، لهذا يقول:

«كان [أموري] يصرّ على مساعدة أبي في عمله حتّى أثناء إجازاته القصيرة في سنيّ الحرب مع إيران قبل أن يقتل في معارك الفاو» (أنطون، ٢٠١٣: ١٦).

فكان والد جواد بطل الرواية يرى بأنّ صدام حسين هو الذي قتل أمير:

«بعد سنتين ونصف من موت أموري، عام ١٩٩٠، حين وافق صدام على كل شروط الإيرانيين وتخلّى عن مطالبه التي شتّ الحرب بسببها بعد احتلال الكويت كي يضمن الجبهة الشرقية ويسحب الجيش منها إلى الكويت، ضرب أبي كفاً بكف وصرخ: لعد خاطر شنو حاربنا ثمن سنين ولويش راح أموري؟» (أنطون، ٢٠١٣: ٢٢).

يظنّ جواد ووالده بأنّ الحرب التي شتّها صدام ليست على حقّ وأبناء الشيعة هم ضحيّة هذه الحرب. كان الكثير من جنود الجيش الشعبي يفرون من المعارك ويلتجأون إلى إيران، حيث كان أكثرهم من المذهب الشيعي. حتّى عندما تزوجت أمّ حمودي من شخص ثان، فرّ من الجبهة واعتُبر أسيراً:

«تزوجت أمّه [أم حمودي] من رجل ثان بعد سنتين، لكنّه تأسّر في حرب إيران حيث كان من ضمن قواطع الجيش الشعبي واعتبر مفقوداً لأنه لم يعد بعد نهاية الحرب» (المصدر نفسه: ٢٧).

فأبناء الشيعة كانوا يفرون من جبهات حزب البعث الى إيران، وينتظرون الفرصة المناسبة للإطاحة بهذا الحزب والانتقام منه، ومن هذا المنطلق تأسس حزب الدعوة للقيام بهذه المهمة.

٢.٤ الآخر الأمريكي

حضر الآخر الأمريكي في الرواية عبر مرحلتين زمنيتين مختلفتين؛ المرحلة الأولى عام ١٩٩١ عند غزو الكويت على يد البعثيين ممّا أدّى إلى حضور الأميركيان لإخراجهم من الكويت. يروي لنا سنان أنطون هذه المرحلة عن لسان جواد عندما كان جندياً في السماوة:

«كانت الطائرات الأمريكية تحوم في السماء وبالقرب من وحدتنا طول الوقت وكنا نسمع عن قصف مواضع مقاومات الطائرات بعد فرض منطقة الحظر الجوي في جنوب وشمال العراق منذ عام ١٩٩٢ والتي كان يفترض أن تمنع النظام من قمع المواطنين لكن الطائرات الأمريكية كانت تقتل الأبرياء وحتى الرعيان أحياناً. لأدري هل كان ذلك غباءً أم أنّ الطيارين كانوا يستخدمون العراقيين كأهداف للتمرين واللهو» (المصدر نفسه: ٨٧).

ففي هذا الحضور للآخر الأمريكي نرى قتلاً عشوائياً ونهباً للممتلكات العامة، وتعتبر هذه المرحلة من أشد المراحل حساسية، ففي أثناء خروج حزب البعث من العراق قامت أبناء الشيعة بتشكيل ثورة ضده، بيد أنّ النظام البعثي قام بقمع كل من ثار من أبناء الشعب، كما كان الآخر الأمريكي يهّم بقتل الأبرياء من جانب آخر:

«ذات فجر صَحونا على دوي انفجار قوي هزّ المعمل، كما كنا نسَمي الوحدة. تبعه انفجاران آخران هزّا الأرض ثم صوت تساقط حجارة وحصى على السقوف والنوافذ وأزيز طائرة تبتعد.. لمحت على بعد عشرين متراً إلى اليمين جسداً مكوماً فركضت نحوه. كان جاثماً على بطنه لكنني عرفته من شعره. كان سلاحه ملقى على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار. صرختُ باسمه وأنا أركض نحوه لكنّه لم يتحرك» (المصدر نفسه: ٨٧-٨٨).

جاء الروائي بهذا المشهد وهو موت باسم، رفيق جواد أيام الخدمة العسكرية، أثناء قصف الطائرة الأمريكية عام ١٩٩٢، ليُظهر لنا حضور الآخر الأمريكي القاتل بصورة بارزة ودقيقة. ثم يقفز بنا الروائي إلى عام سقوط حزب البعث قاتلاً:

«في شتاء ٢٠٠٣ بدا أنّ الحرب قادمة لا محالة، مرّة أخرى» (أنطون، ٢٠١٣م: ٩١).

أمّا المرحلة الثانية لحضور الآخر الأمريكي في الرواية هي عند احتلالهم العراق في ١٩/٠٣/٢٠٠٣م بذريعة امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، فسنان أنطون يُطلعنا على أحداث جرت في العراق منذ بداية الحرب حتى يومنا هذا، ليبين لنا أنّ الإنسان المعاصر يعيش أزمة هوية حقيقية، والغزو الثقافي الأمريكي أمر بديهي يهدّد جميع الدول والشعوب بما فيها الشعب العربي والإيراني. فأمریکا قد احتلت العراق في غضون أيام:

«كان الأمريكان قد احتلوا النجف كما سمعتُ على الراديو الليلة الماضية» (المصدر نفسه: ٩٦).

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسان أنطون ١٣٧

فبعد الاستيلاء الأمريكي على العراق أخذت جنود الأمريكان تحرس ثغوره بدل أبنائه، الأمر الذي جعل صبري يشكو بعد عودته من الغربية والنفي إذ واجه غربةً أشدّ مضاضة:

«دخلنا العراق الفجر وچان منظر يجرگ الكلب. اللي رخب بيّه بيلدي بعد كل هالسنين من الغربية والنفي چان جندي أمريكي يگُلي: ولكم تو إراك. تصوّر!» (المصدر نفسه: ١٢٢).

كان صبري ذا شخصية رافضة ومعادية للحرب ولحزب البعث أيضاً، فهو يبحث عن وطنٍ آمن لا مكان فيه للصراعات المذهبية والسياسية، يحلم بعراق آمن، ثمّ يكمل:

«قال إنّه كان قد كتب اسمه بالعربية على خوذته: ويليام، گتله: ذس إز ماي كنتري. هز رأسه ثم قال إنه كان ضد الحرب وإنه تظاهر ضدّها مثل الملايين في ألمانيا والعالم» (المصدر نفسه: ١٢٢).

عندما خرج الشّعب العراقيّ للتّناديد بالاحتلال، رفعوا بوجه الاحتلال الأمريكي، صوراً للحريّة ولافتاتٍ تؤيّد الديمقراطية:

«ربما اجتذب الكثيرين شعار لا للاحتلال/ نعم للديمقراطية الذي كان يحتل الكثير من اللافتات التي كان البعض يحملها. كانت هناك لافتات أخرى والكثير من الأعلام الحمراء وصور عبدالكريم قاسم» (المصدر نفسه: ١٣١).

صبري الشخصية المهمّة والمطلّعة على تاريخ العراق في رواية وحدها شجرة الرمان، عند رجوعه للعراق بصفته زائر مؤقّت، ييوح بأحداث مهمّة لجواد بطل الرواية، فقد كان يؤكّد على الأنا العراقية العربية الإسلامية أكثر من تأكيده على الأنا الشيعية أو السننية أو المسيحية، كما كان يعبر عن آلامه المميّنة عند رؤية الآخر الأمريكي، فيقول جواد:

«كان عمّي يؤمن إنّه [عبدالكريم قاسم] وبالرغم من كلّ الأخطاء كان أوّل عراقي وطني يحكم البلد في القرن العشرين وبأته قام بإنجازات مهمّة. قال وهو يشير إلى الجنود الأمريكيان الذين كانوا يراقبون المشهد من سيطرة همفي إنّ الأمريكان كانوا ضدّه وساعدوا البعثيين من أجل الانقلاب ضدّه» (أنطون، ٢٠١٣م: ١٣١-١٣٢).

كان بطل الرواية يرى في الآخر الأمريكي احتلالاً وسلطة غير شرعية، فعندما طلب منه صبري أن يذهب إلى نصب الشهيد الذي صمّمه إسماعيل فتّاح الترك، كان الجيش الأمريكي قد احتلّ تلك الساحة:

«على الجانب الآخر من الشارع كان هيكل بناية اللجنة الأولمبية التي تعرّضت لقصف شديد هو كل ما بقي منها بعد أن احترق كل شيء وانهارت أجزاء كبيرة منها. سألني عنها فقلتُ له إنها كانت مقرّ عدي. نظر إليها قليلاً والتقط صورتين ثم عاد بأنظاره إلى نصب الشهيد. كنّا أمام الباب الرئيسي وبدأ أنّ الأمريكان كانوا قد احتلّوا المكان وقد جعلوا منه موقعاً عسكرياً» (المصدر نفسه: ١٣٣).

فجواد كان يرى في الآخر الأمريكي محتلاً لأرضه وبلاده، ولاتتغيّر هذه النظرة السلبية حتى نهاية الرواية وبما أنّ جواد من الدّ أعداء البعثيين الّا أنّه كان يريد لهم إسقاطاً بشكل آخر ومختلفاً عمّا يراه، إسقاطاً بدون وجود أمريكا، لأنّ دخول الأمريكان عاث فساداً بكل شيء: «الحرب ودخول الأمريكان عطّلا كل شيء» (المصدر نفسه: ١٤٠).

فحضور الآخر الأمريكي في حقتين مختلفتين، عام ١٩٩١ عند غزو الكويت وقصفهم العشوائي وقتل الكثير من الأبرياء ثمّ حضوره عام ٢٠٠٣ لإسقاط حزب البعث، جعله يستولي على عراقٍ محتضّر بسبب الحروب الطائفية والجماعات الإرهابية ممّا أدّى إلى إشاعة الدمار ونهب جميع الممتلكات.

٣.٤ تمظهرات الآخر البعثي

إنّ ما حدث من سقوطٍ للنظام البائد ونهايته يوم ٩/٤/٢٠٠٣ أدى إلى أن يشعر الرّوائي العراقي أنّه قد تخلّص من قيود الرّقيب والرّقابة التي كانت بمثابة مقصلة فوق عنقه. «هذه الرّوى بدأت تظهر أكثر فأكثر عند الروائيين المغتربين الذين هربوا من جحيم الحروب والدمار، أن تلمس الجرح النازف ولو بخوف حيناً وباستحياء حيناً آخر» (بازيكر ونيازي، ١٣٩٥: ٥٦). فالموت الذي يتحدّث عنه بطل الرواية، موت غير طبيعي وقع إثر أحداث كثيرة، منها اغتياالات طائفية وحروب دولية كما أنّه يرى الجيش البعثي هو الآخر العربي الذي تسبّب بقتل أموري:

«كانت الأخبار في اليومين الماضيين قد تحدّثت عن معارك دامية في الفاو، حيث كانت وحدة أموري قد نُقلت قبل شهرين من القاطع الشمالي، وعن خسائر جسيمة تكبدها

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون ١٣٩

الجيش. ترددت لثوان طويلة كأني أريد أن أُوجَل الخبر الجلل. ثم قلتُ له وأنا أعانقه وأقبله على خده الأيسر دون أن أتمكن من حبس دموعي: البقية بجياتك يابه، هسته جابوه للبيت». (أنطون، ٢٠١٣م: ٢١).

لقد صوّرت الرواية معاناة الشعب العراقي بسبب حرب العراق ضد إيران، وأعرب الروائي عن رفضه التّام لهذه الحرب التي وقعت سنة ١٩٨٠م، واستمرّت ثماني سنوات بسبب سياسة صدام حسين الهوجاء، وبيّن لنا جانباً مهمّاً من حياة الناس ورفضهم للحروب وإدانتهم لها:

«بعد سنتين ونصف من موت أموري، عام ١٩٩٠ حين وافق صدام على كل شروط الإيرانيين وتخلّى عن مطالبه التي شتّ الحرب بسببها بعد احتلال الكويت كي يضمن الجبهة الشرقية ويسحب الجيش منها إلى الكويت» (أنطون، ٢٠١٣م: ٢٢).

كان حزب البعث بمثابة الآخر الذي يجرّ الشعب العراقي في أحداث مؤلمة، كصراعاته مع أبناء وطنه من مختلف المذاهب، وحروبه مع باقي الدول المسلمة ممّا جعلت منه حزباً منفوراً داخل العراق وخارجه، فكان هذا الحزب يضايق العوائل بشتّى أنواع الاستجواب والتعذيب إذا هرب أحد أفرادها لإنقاذ حياته، الأمر الذي حصل لصبري عمّ جواد بطل الرواية، فعندما ذهب إلى ألمانيا هارباً من الإعدام واتّصل بأخيه، استُدعي والد جواد:

«إتصل بالهاتف مرّة ليطمئننا عليه، لكنّ أبي استُدعي إلى الأمن العامة واستجوب لثلاث ساعات بسبب تلك المكالمة، فكتب إلى عمّي بعدها يطلب منه ألا يتصل بالهاتف» (المصدر نفسه: ١١٩).

لم يكتفِ الحزب البعثي باستجواب الكبار، بل كان يريد من الأطفال والتلاميذ أن يملؤوا استمارات حول العائلة والأقارب الموجودين خارج القطر والمنتقلين الى الأحزاب المختلفة:

«بعد سنتين عندما ورّعت علينا استمارات الانتماء إلى حزب البعث في المدرسة المتوسطة كان يجب أن نملأ الجزء المتعلّق بوجود أقارب خارج القطر وكان هناك جزء آخر يطلب ذكر أسماء الأقارب المنتقلين إلى الحزب الشيوعي أو حزب الدعوة، فكتبت اسم عمّي الثلاثي: صبري حسن جاسم» (المصدر نفسه: ١١٩).

فبهذا تحاول الأنا البعثية الضغط على الأنا الشيعية. أمّا إجبار الجيش العراقي والضغط عليه لخوض حربٍ على الكويت كان صدمةً كبيرةً على الشارع العراقي. «الجيش العراقي في حرب الكويت كان في حالة يرثى لها، فالسلطة الحاكمة كانت تجبرهم إلى غزو أرض الكويت على الرغم من القصف الجوي لقوات التحالف الكثيف والاسلحة المتطورة التي استخدمت في هذه الحرب» (بازيكر ونيازی، ١٣٩٥: ٦٢). ففي الرواية، يروي السيد فرطوسي لبطل الرواية جواد، أحداث غزو الكويت قائلاً:

«غزا صدام الكويت وثقلت وحدتي إلى الكويت. عندما بدأت الحرب كان القصف شديداً ومتواصلاً ولا أدري كيف نجونا منه. لم يبق من وحدتي غيري أنا وحدتي آخر من العمارة، اسمه موسى، كنا سوياً في الخندق. الكل ماتوا ودُفِنوا تحت الرمال. عمّت الفوضى من البداية لأن كافة الاتصالات والامدادات انقطعت من الأيام الأولى» (أنطون، ٢٠١٣م: ١٦٣).

إذن من كان يترك ساحات الحرب من الجنود العراقيين، لا يقل مصيره تعذيباً عمّا يراه ويواجهه في ميدان الحرب ضد قوات التحالف، فالآخر البعثي، على الرغم من هزيمته، كان الأكثر فتكاً من نظيره الأمريكي، كما كان يتحمّل مسؤولية كل هذه الأحداث من قتل ودمار:

«ركضنا كالكلاب أكثر من ساعتين دون أن ننظر وراءنا. فكرة موسى بالخروج عن الطريق الرئيسي هي التي أنقذت حياتنا وإلا لكاننا تفحّمنّا مثل كل أولئك الذين رأيتهم يحترقون في مقاعد السيارات والذين تناثرت أشلاؤهم حولها. رائحة اللحم والشعر المحترقين أصابني بالغثيان وظلت تعذبني في كوايبي لأشهر بعدها» (المصدر نفسه: ١٦٤).

فمن خلال شخصية جواد، صوّر لنا سنان أنطون الرّفص التّام للحرب وحقّ الإنسان في الحياة، بنظرة ثاقبة وشاملة لاتقتصر على وعي الشخصية بحقّها في الحياة فقط، بل على وعيها بحق غيرها كذلك. كان جواد رافضاً سياسة الحروب التي سحقت أرواح الكثير من الجنود العراقيين، فحزب البعث لا يدرك قيمة حياة الإنسان الذي كان يدفعه مكرهاً للجحيم جبهات الحرب الأخرى مع أنّه يحيط بحجم الظلم الواقع عليه. فقامت السّلطة الحاكمة بأبشع الانتهاكات لحقوق الإنسان وذلك بمصادرة حقّ الحياة أثناء قمعها وحصد أرواح

صورة الأنا والآخر في رواية وحدها شجرة الرمان لسنان أنطون ١٤١

الكثير من البشر؛ إذ أصبحت الجثث منتشرة في المدن العراقية أثناء الانتفاضة الشعبانية، كما منعت السلطات البعثية دفنهم ليكونوا عبرة لمن يفكر في الاحتجاج ضدهم يوماً ما.

٤.٤ تجليات الآخر الإرهابي

العنف بشتى أنواعه؛ كالعنف السياسي والعنف القبلي والطائفي وحتى العنف المذهبي من أقدم المظاهر التي برزت مع ظهور الإنسان، فالعنف المذهبي كان من أهم الموارد في تاريخ الإنسان «وتطور مع تطور تاريخه في إطار جدلي مرتقياً عبر الزمن إلى ما هو أشد وأخطر، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى كونه يدخل ضمن سياسة معقدة متقاربة الدلالة والارتباط، وهو ما يميز العالم المعاصر الذي شهد ميلاد تيارات فكرية تُبرز العنف ودوره في تكوّن التاريخ الإنساني كالنازية والفاشية والتيارات الدينية المتعصبة» (دبودومة وآخرون، ٢٠١٦م: ٢٨). فعلى الرغم من أن رواية "وحدها شجرة الرمان" لسنان أنطون، تدور حول أحداث العراق من زمن الحرب العراقية الإيرانية حتى غزو أمريكا للعراق، وأحداث إرهابية تقتل الأبرياء، إلا أن الروائي لم يتناول موضوع الإرهاب الديني من حيث حياة الإرهابيين ومعتقداتهم، بل يصف ما بعد الانفجار والدمار الهائل والدماء والأحذية المبعثرة في الشارع، ورجال تنق وتبكي، بحث سنان في الآخر الإرهابي الوجه المذعور للمجتمع العراقي. فيروي جواد للقارئ في بداية الرواية، أحداثاً إرهابية ترعبه في كوابيسه الليلية:

«نفس الكابوس يتكرر منذ أسابيع» (أنطون، ٢٠١٣م: ٩)

فأصبح الإرهاب كابوس العراقيين، يلاحقهم في الشوارع، والمقاهي، والنّدوات وحتى في بيوتهم وأحلامهم:

«أحسستُ بألم حادّ وبالسكين الباردة تخترق عنقي. سال الدّم الحارّ على صدري وظهري. سقط رأسي على الأرض وتدحرج على الرّمل ككرة... نزع أحدهم العصا من عيني ووضعها في جيبه وابتعد بعد أن بصق عليّ» (المصدر نفسه).

حاول الروائي إعطاء النصّ طابعاً تراجمياً وأن يخلق الآخر الإرهابي منذ بداية الرواية لكي تتعيّن جبهة الأنا العراقي والآخر الإرهابي بشتى معتقداتها.

«كنتُ في المغيسل اغتنم فسحة من الوقت بلا جثث وأقرأ في كتاب عن أساطير الخلق الرافديّة حين سمعت على الراديو أنّ انتحارياً فجّر نفسه في شارع المتنبي ودمّر الكثير من المحال والمكتبات ومقهى الشاهبندر وقتل أكثر من ثلاثين شخصاً» (المصدر نفسه: ٢٢٧).

يُعدُّ العنف ظاهرة عالميّة شهدتها جميع المجتمعات لارتباطها بالطبيعة الإنسانية إلا أنّها انتشرت في الوطن العربي المعاصر بشكل رهيب، فرّما يرجع لمدى تأصله في التراث العربي الإسلامي، وكونه سبباً في التغيّرات والأحداث الكبرى التي كوّنت مجتمعاته، حيث لم يخلُ من صراعات وحروب خاصة في المغرب العربي وبلاد الرافدين والهلال الخصيب، إذا اعتبرنا الخليج أقلّ عنفاً، ممّا جعل العنف يدخل في تركيبها التاريخية، فوصفت أنّها مجتمعات مجبولة عليه كجزء من المخيال العربي الإسلامي. (حجاج، ومليكة، ٢٠١٧م: ٣٢). كان للآخر الإرهابي حضور لافت في روايات سنان أنطون، ويحاول الرّوائي أن يبرهن هذا الحضور والأهداف التي يسعى وراءها، ففي رواية "وحدها شجرة الرمان"، كان هدف الآخر الإرهابي النبيل من الفئة المثقفة العراقيّة باستهداف شارع المتنبي:

«أتصل بي الأستاذ عصام ذلك المساء وأخبرني بصوت متهدج أنّ أحد زملائي من أيام الأكاديمية، عادل محيبس، قُتل في الهجوم. قال إنّّه كان يجلس في الشاهبندر عندما هجم الانتحاري... كان ذكياً وطموحاً وأصبح من النقاد التشكيليّين المعروفين فيما بعد وكان يكتب مقالات ومراجعات في الصحف» (أنطون، ٢٠١٣م: ٢٢٨).

كان بطل الرواية يبحث عن تفاسير واقعيّة وعقلانية لهذه الأعمال التي طالما تجول في خاطره ولم ير لها تفسيراً أو سبباً عقليّاً:

«فكرتُ بهذا الذي فجّر نفسه وأزهق أرواح عادل وكل هؤلاء ترى من يكون؟ أحاول دائماً أن أبحث عن تفسير عقلاّني لأعمال كهذه» (المصدر نفسه: ٢٢٩)

كان الآخر الإرهابي حصيلة القمع السياسيّ الذي شهده العراق منذ عهد سلطة حزب البعث، ممّا أدّى إلى البحث عن الانتقام من الأقليات والطوائف الأخرى، وحضور جماعات متطرّفة من خارج القطر العراقي للبحث عن السلطة في العراق أو جماعات تتصارع من أجل الثروات على أرض العراق، كلُّ هذه الأمور أدّت إلى ولادة جماعات متطرّفة تقتل الشعب العراقي بالمفخّخات وغيرها.

٥. النتائج

كثافة الجدل تزخرُ بين الأنا والآخر في روايات سنان أنطون حيث تتجه رواياته نحو رسم صور محدّدة للأنا والآخر فوضع سنان هذه الصُّور كقاعدة للتعامل مع الأنا والآخر والحكم في شأنهما، إضافة إلى أنها تجربة قائمة بذاتها تتقاطع مع التجارب الأخرى في الوقت الذي تحافظ فيه على خصوصية الرؤية وتفردّها.

- كنّا نسعى من خلال هذا البحث أن نحدّد صُور الأنا ونعيّنها وقد عرفنا بأنّ الروائي من خلال "جواد" بطل الرواية صوّر الأنا المعرفية؛ وسعت الأنا لمعرفة ذاتها وإثبات هويتها المتمحورة في الذات الإسلامية، المتمحورة في المذهب الشيعي، والعربية المتركزة في الأنا العراقية، وطموحات الأنا العراقي تكشف عن الآخر البعثي والأمريكي حيث أصبحت حالة من الرّفص والتمرد والانتفاض ضدّ الآخر الأجنبي والبعثي اللذين كانا سبباً في زعزعة أمن البلاد بعقيدة بطل الرواية. ظهرت الأنا في الرّواية من خلال البحث عن الأنا، وصورة الأنا/ الشيعية، وصورة الأنا/ العراقية.

- الأنا في الرواية ابنتت على أبعاد إيديولوجية أكثر من أن تكون أنا عرقية أو قومية، كانت عائلة جواد عائلة شيعية تنتمي إلى بغداد، ويمتهن والده مهنة غسل الأموات ممّا جعل جواد يتهرّب من هذه المهنة الأمر الذي أذى إلى غضب والده؛ فقد كان بطل الرّواية يبحث عن مكانة الأنا بين العائلة التي كانت تحبذ أمير الابن الأكبر لها، وذلك بسبب تفوّقه في الدّراسة ومتابعة مهنة والده حتى الممات؛ الأنا الشيعية هي الأكثر وضوحاً في هذه الرّواية فحاول سنان أن يخلق فضاءات متلائمة مع إيديولوجية العائلة. حضرت الأنا العراقية في الرّواية بحضور صبري عمّ جواد، الذي هرب إلى ألمانيا خوفاً من الآخر البعثي.

- وتجلّى الآخر بأنواعٍ مختلفة سيّما الآخر الأمريكي، والآخر الإرهابي، والآخر البعثي؛ وكان الآخر البعثي هو الأكثر فتكاً بأبناء الشعب العراقي، حيث شتّهم وجعلهم يهربون إلى عدّة مدن كصبري عمّ جواد.

- وظهر الآخر العربي المضادّ وهو الآخر البعثي في الرّواية كظهور الآخر الأمريكي فتكاثفت هذه الصورة أكثر من نظيراتها.

- حضر الآخر الأمريكي بكثافة في رواية "وحدها شجرة الرمان"، فقد حضر عام ١٩٩١م بعد غزو الكويت على يد البعث، وعام ٢٠٠٣ بحجة امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل وتحريره من اضطهاد البعث وظلمه، وقد تمّ قصف العراق بكثافة ممّا أدى إلى اغتيال وقتل الكثير من أبناء الشعب العراقي كباسم، صديق جواد أيتام العسكرية. كما أنّ الآخر الإرهابي حضر في الرواية بعد عام ٢٠٠٣ ممّا جعل شوارع العراق جحيماً وغير آمنة وقد استهدف الأمكنة المقدّسة، والشخصيات المثقفة في العراق، كان الانفجار في شارع المتنبّي هو الأكثر إيلاماً على بطل الرواية.

- والفوائد التي يكتسبها القارئ الإيراني والعربي من خلال معرفته لهذه التحدّيات هي أنّ عنصريّة الأحزاب والحكومات التي تحكم البلدان الإسلامية لا تتمثّل معتقدات الشعب وليس بالضرورة أن تتبع الشعوب مقاصد حكوماتها؛ كما ظهرت جدليّة الصّورولوجيا أو الصّراع بين الأنا والآخر في هذه الرواية حيث ابنتت على صراع حزب البعث مع الكيان العراقي، وقد نشبت نيران التفرقة والتبعيض ممّا أدّت إلى حضور أمريكي في الشّرق الأوسط بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩١.

الهوامش

١. ما بك يا أمّي؟ ماذا حدث؟
٢. قذفوا الحرم العسكري أولئك الذين لا يخافون الله.
٣. لا أحد يشرح لنا لماذا القوات الأمريكية ضربوا السيارة. قيل لي أن أفدّم طلب تعويض عن الحادث لكن من دون جدوى، اتصلت بالشرطة وقلت لهم بأنّ هناك جثة في الشارع يجب أن تأتوا بها قبل أن تنهشها الكلاب، قالت الشرطة أنّه لا إمكانيات لدينا، فذهبت مع أخي الذي ينتظرنّي هاهنا وجئنا بالجثة.
٤. دخلنا العراق فجراً وكان هناك منظر يحرق القلب، فالذي رحّب بي في بلدي بعد كل هذه السنين والغربة والنفي، كان جندياً أمريكياً يقول لي: أهلاً بك في العراق، تصوّر!.
٥. البقية في حياتك يا أبي، الآن جاءوا به إلى البيت.

المصادر والمراجع

الكتب

القرآن الكريم.

ابن منظور، (١٩٨٨م)، لسان العرب، مج ١، بيروت: دار الجليل، دار لسان العرب.
أفاية، محمد نور الدين، (١٩٩١م). الغرب في المتخيل العربي، الشارقة: منشورات دائرة الثقافة والإعلام.
أنطون، سنان، (٢٠١٣م). وحدها شجرة الرمان، بيروت: دار الحمل.
بسوي، همت، (٢٠٠١م). الشخصية المصرية وصورة الآخر، ط ١، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.
الجابري، محمد العابد. (٢٠٠٩م). الإسلام والغرب الأنا والآخر، ط ١، بيروت: سلسلة فكر ونقد، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

حسية، مصطفى، (٢٠٠٩م). المعجم الفلسفي، ط ١، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.
حمود، ماجدة. (٢٠١٠م). صورة الآخر في التراث العربي، ط ١، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
الخباز، محمد. (٢٠٠٩م). صورة الآخر في شعر المتنبي، ط ١. بيروت: مؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ديودومة، عبدالقادر، عطار أحمد، مونس بخضرة، شوقي الزين محمد، (٢٠١٦م). مقاربات فلسفية للنصوص الروائية الجزائرية، تلمسان: النشر الجديد الجامعي.
الذويخ، سعد فهد. (٢٠٠٩م). صورة الآخر في الشعر العربي، ط ١، عمان: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

معلوف، لويس، (١٩٩١م)، المنجد في اللغة والأعلام، ط ١، بيروت: دار المشرق والمكتبة الشريفة.

الدوريات والمجلات

بازينجر، نهاد، وشهريار نيازي، (١٣٩٥ش). «رفض الحرب والعنف وإدانة نظام البعث عند الروائية العراقية هدية حسين»، مجلة أدب عربي، سال ٨، شماره ٢، ص ٥٥-٧٤.

رضا پور محيسني، توفيق، ورسول بلاوي، وعواد كاظم لفته الغزي، (٢٠٢٠م)، «صورة الآخر الأجنبي والعربي في شعر فاضل العزاوي»، مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ٢٢، العدد ٢، ص ٩٧-١١٤.

عباسعلي نجاد، مريم، خليل پرويني، هادي نظري منظم، سيد فضل الله مير قادري، (٢٠١٩م). جدلية الأنا والآخر في أشعار عزالدين المناصرة المقاومة، الأدب العربي، جامعة طهران، السنة ١١، العدد ١، ص ٢٢-١.

نامور مطلق، بهمن، (١٣٨٨ش). «لحظة عن الصورولوجيا، تقدم أسلوب للنقد الأدبي والفني في الأدب المقارن»، مجلة دراسات الأدب المقارن، السنة ٣. العدد ١٢، ص ١١٩-١٣٨.

الرسائل والأطاريح

بوحلايس، سلاف، (٢٠٠٩م). صورة الأنا والآخر في شعر مصطفى محمد الغماري، أطروحة الماجستير، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر.

حجاج، حبيبة، ومليكة أوكسل، (٢٠١٧م)، صورة الموت في رواية الأزمة الجزائرية، رواية "الحلاج وزغاريد الدماء" لـ "محفوظ كحوال" أنموذجاً، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في ميدان اللغة والأدب العربي، جامعة العربي بن مهيدي.

المروط، بلال سالم، (٢٠٠٨م). صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، أطروحة للدكتوراه، أردن، جامعة مؤتة.